إبستيمولوجيا الظاهرة الدينية بين الاستحالة والإمكان

محمد الإدريسي (*)

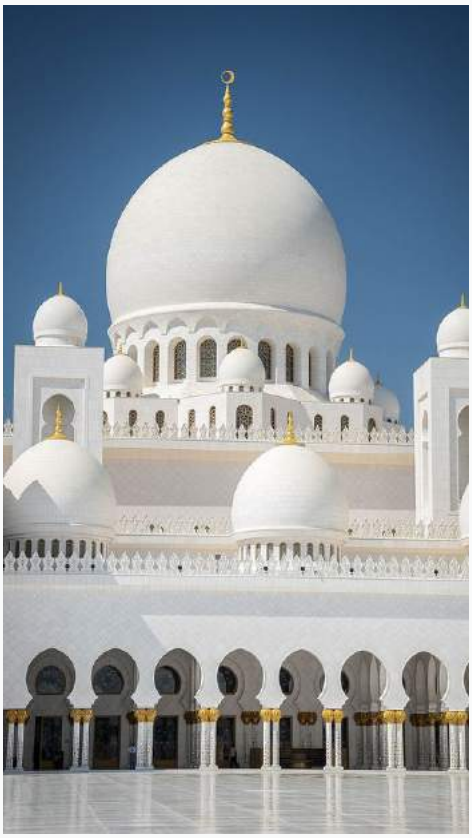

تمهيد:

نعتبر أن الحديث عن إمكانية قيام إبستيمولوجيا للاعتقاد الديني يقترن في مرحلة أولى بتحديد التمايزات الإبستيمولوجية بين الدين والتدين، بالشكل الذي يجعل من الأول مقترنًا بالعلوم الدينية (سواء الإسلامية أو المسيحية أو اليهودية...)، والثاني مقترنًا بحقل العلوم الاجتماعية، وهو ما يهمنا بشكل كبير هنا في إطار بحثنا عن صيغ معرفية ومنهجية لمقاربة التدين في إطار تحولات المجتمعات الإنسانية

(*) أستاذ الفلسفة وباحث في علم الاجتماع، المغرب، البريد الإلكتروني:
mohamed-20x@hotmail.com

من جهة، وتطور مناهج وتقنيات العلوم الاجتماعية من جهة أخرى، الأمر الذي يفرض علينا ضرورة جعل العلوم الاجتماعية مدخلًا أساسيًا لرصد تحولات الحقل الديني في سياقه الكوني.

إن التراكم المعرفي الذي حققته العلوم الاجتماعية في دراستها للظاهرة التدينية، بدءًا من القرن التاسع عشر إلى اليوم - منذ دوركهايم (Émile Durkheim) وفيبر (Max Weber)، ومالنوفسكي (Bronisław Malinowski)، وصولًا إلى لفي ستروس (Claude Lévi-Strauss)، وكلفورد جيرتز (clifford geertz) - قد استتب به الأمر وفق منطق تراكمي جدلي استفاد، بموجبه، اللاحق من السابق قبل أن يتجاوزه[1].

أولًا: الاعتقاد من وجهة نظر العلوم الاجتماعية:

اهتمت العلوم الاجتماعية، خلال القرن الأخير، بمسألة المعتقدات الدينية كمدخل إبستيمولوجي لتحليل الظاهرة الدينية، باعتبارها واقعة اجتماعية، ضمن ما يعرف بسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا الدين أو الأديان[2] التي قاربت «الحقل الديني» (le champ religieux)، و(الهيئات الدينية)، (Les instances religieuses) في تفاعلها مع الحقول الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والاجتماعية[3]. مع تطور الحياة الإنسانية خلال الفترة المعاصرة، أصبحت المعتقدات الدينية تشكل تحديًا خاصًا أمام السوسيولوجيا: يتعلق الأمر بقانون جوهري لطبيعة الأشياء، يخترق المجتمع وأعماق كل منا على حد سواء؛ فعندما نسأل شخصًا ما: «ما دينك» (?Quelle

(1) Olivier Bobineau Sébastien Tank-storper, Sociologie des religions, Armond Colin. Deuxième éditions, (2012) (p/ 8).

(٢) نتحدث هنا عن سوسيولوجيا الأديان «la sociologie des religions» كدراسة علمية موضوعية للتدين والممارسات الدينية باعتبارها إنتاجًا اجتماعيًا، وليس عن السوسيولوجيا الدينية «la sociologie religieuse» التي أنتجتها الكنيسة الكاثوليكية لدعم مصالحها السياسية والاجتماعية.

(٣) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، ورقة قدمت خلال أشغال الندوة الدولية حول «الدين والتدين بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية»، الكلية المتعددة التخصصات بالناظور، (٢٥، ٢٦ نوفمبر ٢٠١٥م)، (غير منشور).

est votre religion)، فنحن نسأله «ما هي طريقة عيشك وحياتك؟» (Quel est votre way of life?)[1].

منذ البدايات الأولى لسوسيولوجيا وأنثروبولوجيا الأديان، عمل روادها الأوائل -مع دوركهايم وفيبر- على تلافي ردود الفعل الرافضة لدراسة الدين من الناحية العلمية والإبستيمولوجية، من خلال التشديد على إمكانية دراسة الظاهرة الدينية كواقعة اجتماعية وممارسة ثقافية قابلة للقياس والتحليل العلمي اعتمادًا على المنهج المقارن. هذا المنهج الذي لم يجنب العلوم الاجتماعية من السقوط في مطبات إثارة الحساسيات وإيقاظ المشاعر فقط، وإنما أتاح لها مقاربة أهم وأعمق الأبعاد الروحية لدى الإنسان، وذلك بقدر كبير من التجرد والصرامة العلميين. كما ستسهم الدراسات الأنثربولوجية عن المجتمعات غير الغربية في تغيير وإغناء أدوات وآفاق البحث حول المجتمعات الغربية ذاتها[2].

تم استثمار المنهج المقارن في دراسة الظاهرة الدينية من طرف العلوم الاجتماعية بهدف التأكيد أيضًا على أنه لا يمكن فصل الدراسة العلمية للظاهرة الدينية وإنتاج التدين عن السياق العام لمسلسل التغير الاجتماعي وتحول الوظيفة السوسيو-تاريخية للدين داخل المجتمعات الإنسانية. يعكس تفاعل العلوم الاجتماعية مع العلوم الدينية حقيقة التطور التاريخي للدين كموضوع للدراسة في خضم اختلاف منطلقات كل حقل معرفي: تقارب العلوم الاجتماعية المعتقدات الدينية من منظور نسبانيتها وارتباطها بوقائع فعلية ليست بالضرورة خيالية، لكن من المستحيل أو من الصعب البرهنة على حقيقة وجودها بوسائل منطقية أو تجريبية مقبولة؛ لذلك فمسألة حقيقة وجودها لا تدخل في صلب اهتمام علماء الاجتماع بل فقط

(1) Lakshmi KAPANI, Spécificités de la religion hindoue, in Jean DELUMEAU (dir.), Le fait religieux, Fayard, Paris, (1993), (p/ 375).

(2) Clifford Geertz, Religion: Anthropological study, In international encyclopedia of the social sciences, (1968) (vol10), (p/ 398).

المعتقدين فيها[1]، في حين أن العلوم الدينية[٢] تقارب الدين من حيث هو معتقد يحمل حقيقته المطلقة في ذاته، ويبني قوته من حيث وجود المعتقدين فيه[٣]، أي مجموع أحكام ذاتية تخلو من اليقين الموضوعي. تسعى بذلك العلوم الاجتماعية إلى دراسة التدين كفهم وممارسة للدين بما هو دين، في حين أن العلوم الدينية تنطلق من إطلاقية المعتقد ويقينيته، في إطار البحث عن تكييف الوقائع الاجتماعية مع المعتقد الديني.

أمام هذا الاختلاف الجذري بين المقاربة الدينية للمعتقد، والمقاربة العلمية للاعتقاد، حاولت النظريات الأنثروبولوجية البحث عن تفسيرات أولية للتدين الإنساني. ويمكن أن نميز بين نوعين من هذه التصورات النظرية العاطفية؛ أولًا: نظريات الخوف التي تعتبر الدين محاولة لتصور وإدراك اللامعقول، وتعبيرًا عن اللامعبر عنه، وانجذابًا دائمًا نحو اللامتناهي[٤]، والواقع أن نظرية الخوف هذه ليست سوى إشارة بسيطة عن شيء واضح وبديهي، وهو أن التجربة الدينية ترتبط دائمًا بشكل وثيق بتلك المشاعر والأحاسيس القوية التي يستشعرها الإنسان تجاه ضخامة الكون، وبقابلية هذا الإنسان للعطب والانجراح داخله في كل وقت وحين[٥]، وبالتالي فهي لا تخرج عن الإطار العام للمعتقد في حد ذاته. **ثانيًا:** نظريات الإيمان،

(1) Charles-Henry Cuin, La sociologie des croyances religieuses à ses frontières, Sociologie / 1 (Vol. 4) (2013), (p/ 82).

(٢) نقصد هنا «العلوم الدينية»، «Les sciences religieuse» [العلوم الدينية المسيحية، العلوم الدينية الإسلامية]، وليس علوم الأديان «Les sciences des religions»، [سوسيولوجيا الأديان، أنثروبولوجيا الأديان، إثنولوجيا الأديان ...].

(٣) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، في الندوة الدولية حول «الدين والتدين بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية»، (مرجع سابق).

(4) Emile Durkheim, les formes élémentaires de la vie religieuse (Le système totémique en Australie), 7ème edition.PUF.Paris (1985), (P/ 34).

(٥) عبد الغني منديب، الاعتقاد الديني كموضوع للسوسيولوجيا والأنثربولوجيا: النظرية والمنهج، في ندوة «إشكالية الدين والتدين: أسئلة، مقاربات، نماذج»، (بتاريخ ٥، ٦ أكتوبر٢٠١٣)، (الرباط، المغرب). http: / / www.mominoun.com/ articles/ 739.

التي تعتبر الدين ظاهرة ميتافيزيقية بالضرورة تعمل على تهدئة اندهاش الإنسان من الألم والمرض وبؤس الحياة والخوف من القدر والمستقبل، وبالتالي تجعل من المعتقد غاية نفعية للإنسان دون أن تحاول فهم طبيعة العلاقة بين الخوف والإيمان والتدين. يظل الدين والمعتقد الديني موضوع تفاعل مستمر بين علوم مختلفة أكثر منه موضوعَ علمٍ محدد وخاص، وهذا سيثير سؤالًا مشروعًا من الناحية الإبستيمولوجيا: هل نحن أمام تداخل بين التخصصات أم فقط أمام تعدد للتخصصات في سياق دراسة ظاهرة مركبة ومعقدة الأبعاد؟ يمكن أن نعتبر تعدد المقاربات العلمية التي تتناول المعتقدات الدينية، قد أسهم في التفسير النقدي والعقلاني للتمثلات والممارسات التدينية عبر عوامل مختلفة، سواء أنثروبولوجية (فيورباخ)، أو نفسية (فرويد)، أو سوسيولوجية (دوركهايم)، أو اقتصادية (ماركس)[1]...

رغم أن العديد من هذه المقاربات قد خلطت بين الدراسة العقلانية والعلمية للظاهرة التدينية، والنقد الأيديولوجي للدين على أساس مشروع إصلاحي اجتماعي أو اقتصادي، أو تصور بديل لحقيقة الإنسان والعالم: عززت الفلسفة الماركسية هذا الاتجاه من خلال النظر إلى الدين كوضعية اجتماعية عرضية، وبنية فوقية ذات أهمية ثانوية ضمن النسيج الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع[2]، يمكن الحديث عن نهايته بنهاية نمط الإنتاج المنتج له.

تُجمع الدراسات السوسيولوجية المعاصرة على ضرورة دراسة المعتقد الديني، من الناحية الإبستيمولوجية، من خارج المعتقدات الدينية، بل من خارج الدين نفسه؛ لذلك أعادت سوسيولوجيا الأديان ردَّ الاعتبار لنفسها كحقل ريادي ضمن السوسيولوجيا العامة، من خلال

(١) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، (مرجع سابق).

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر:

Jean-Paul Willaime, L'approche sociologique des faits religieux, Actes de l'université d'automne - Religions et modernité, (2003).

Jean-Paul WILLAIME, Sociologie des religions, PUF, (coll / Que sais-je), (Paris), (1998).

التركيز على دور الدين في فهم تغيرات المجتمعات المعاصرة وتطوراتها[١].

انطلاقًا من هذا الاهتمام بأهمية الدين في تشكيل الأداء الاجتماعي وبنائه، ساهم التفكير الاجتماعي في تأهيل حقل المعتقدات الدينية كظاهرة جديرة بالدراسة العلمية، وقطع أشواطًا مهمة في سبيل جعل الظاهرة الدينية موضع تحليل وفهم وتفسير علمي، وراكم إنتاجات علمية مهمة في هذا الصدد[٢].

(١) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، (مرجع سابق).

(٢) انظر على سبيل المثال بعض الأعمال الفرنسية الرائدة في المجال:

Danièle HERVIEU-LEGER, avec la collaboration de Françoise CHAMPION, Vers un nouveau christianisme? Introduction à la sociologie du christianisme occidental, Le Cerf, Paris, 1986; Danièle HERVIEU-LEGER, Le Pèlerin et le Converti. La religion en mouvement, Paris, Flammarion, 1999; La religion en miettes ou la question des sectes, Calmann-Lévy, Paris, 2001; Danièle HERVIEU-LEGER et Jean-Paul WILLAIME, Sociologies et religion. Approches classiques, PUF, Paris, 2001; Jean-Paul WILLAIME, Sociologie des religions, PUF, coll. "Que sais-je?", Paris, 1998.

تُجمع الدراسات السوسيولوجية المعاصرة على ضرورة دراسة المعتقد الديني، من الناحية الإبستيمولوجية، من خارج المعتقدات الدينية، بل من خارج الدين نفسه.

أمام هذه الطفرات النوعية التي عرفتها العلوم الاجتماعية في سياق اهتمامها بالظاهرة الدينية، ما هي الحدود التي تواجه هذه التخصصات في دراستها للمعتقد الديني؟ هل يمكن أن تحقق الموضوعية وتلتزم بموضوعها؟ كيف يمكن الحديث عن دراسة إبستيمولوجية للاعتقاد من خارج المعتقد مع ضرورة احترام الخصوصية التدينية للدين؟

ثانيا: في إبستيمولوجيا الاعتقاد الديني:

يتأسس تصورنا لإمكانية قيام إبستيمولوجيا للاعتقاد الديني (Epistémologie des croyances religieuses) على قضيتين اثنتين؛ **أولًا:** إذا كانت البراديغمات العلمية

تسعى إلى محاولة التوفيق بين النظريات العلمية والواقع التجريبي، فإن الخطاب الديني يهدف بدوره إلى التوفيق بين الاعتقاد (الواقع) والمعتقد (الوحي). **ثانيًا:** يختلف الاعتقاد في العلم عن الاعتقاد في الدين، فلا نعتقد في أن اثنين في اثنين تساوي أربعة، نحن نعلم (أنها «خبرة»، وقدر بسيط من المعرفة) ذلك؛ ونعتقد بأنها ستمطر غدًا (هذا رأي يخلو من اليقين) ونعتقد أن الله قد خلق العالم (إنه اعتقاد ذاتي يخلو من اليقين الموضوعي). وعلاوة على ذلك، يختلف معنى فعل «اعتقاد» (Croire) عن دلالة «أعتقد أن الله موجود»، وعن «أعتقد في الله»، (بمعنى، أنني أثق فيه). إلى جانب ذلك، نسمع قول بعض المسيحيين «لا أعتقد بأن الله موجود بالفعل، لكن أعتقد فيه»! من السخافة هنا، أن نتصور عدم الاعتقاد في [وجود] الأشباح رغم كوننا نخاف من بعض الليالي، أو أفضل من ذلك، نعرف بأننا نصرخ أو نخاف أو تدمع عيوننا عند قراءة كتاب أو مشاهدة فيلم يحكي عن الخيال[1]، أي إن الشروط الاجتماعية لإنتاج الخطاب الديني مختلفة جذريًا عن البنيات النسقية المؤطرة للفعاليات العلمية.

نتصور الإبستيمولوجيا باعتبارها بحثًا عن المعايير العقلانية للاعتقاد الديني أو الاعتقاد في الدين، ليس بهدف الكشف عن صواب أو خطأ ما يعتقد فيه المرء، لكن من أجل مساءلة الشروط الموضوعية والذاتية لبناء الاعتقاد الديني، ورسم المعالم الاجتماعية الثقافية لاختلاف التدين وأنماطه بين الأديان المختلفة؛ بل وداخل الدين نفسه. لقد قُذف بالإنسان داخل هذا الوجود -بلغة وجودية-؛ لذلك تسعى الإنسانية (أفرادًا وجماعات) إلى تذويت العالم، وتشكيل الأنساق الرمزية للحياة الاجتماعية والثقافية من خلال التشبث بالمعتقد. لا تهدف الإبستيمولوجيا إلى البحث عن القواعد المعيارية التي يجب

(1) Charles-Henry Cuin, La sociologie des croyances religieuses à ses frontières, Sociologie / 1 (Vol. 4), (2013), (p/ 82).

احترامهـا في الاعتقـادات، لكنّهـا توجـه اهتمامهـا إلى توصيـف الإبسـتيمي الفاضـل مهـما كانـت اعتقاداتـه. فـإذا كانـت أخـلاق الفضيلـة تصـف مـن هـو الأخلاقـي الفاضـل مهـما كانـت أفعالـه، فـإنّ إبسـتيمولوجيا الفضيلـة تهتـم بتوصيـف الإبسـتيمي الفاضـل مهـما كانـت اعتقاداتـه. تصـير الإبسـتيمولوجيا بهـذا المفهـوم بمثابـة أخـلاق للاعتقـاد.. وموضـوع الإبسـتيمولوجيا ليـس هـذه المعياريـة الدوكسـاتية بقـدر مـا هـو الموقـف الإبسـتيـمولوجي الصحيـح للشـخصية الإنسـانية. تقطـع هـذه الإبسـتيمولوجيا مـع البحـث عـن معايـير الاعتقـاد الشرعـي وعـن جـواب لمسـألة أسـس المعرفـة وتطـرح السـؤال التـالي: هـل اعتقاداتنـا هـي المـبررة المعللـة أو نحـن الذيـن نعتقـد شـيئًا بـكل ثقـة؟ فالاثنـان ليسـا سـواء[1].

يتعلـق الأمـر بإبسـتيمولوجيا متداخلـة التخصصـات تنهـل مـن المقاربـات السوسـيولوجية والسـيكولوجية وتتجـاوز كونهـا مجـرد «دراسـة نقديـة لمبـادئ ومناهـج ونتائـج الاعتقـاد»، (الـشروط الموضوعيـة والعقلانيـة لإنتـاج الاعتقـاد)، لتصبـح مهتمـة بالـشروط الثقافيـة والاجتماعيـة والشـخصية لبنـاء الاعتقـاد الدينـي، وبذلـك فهـي تنطلق مـن تحديد المـبررات والـشروط والرهانـات العقلانيـة والمنطقيـة لإنتـاج الاعتقـاد وتفضـل التركيـز عـلى الضـمان الأخلاقـي للاعتقـاد.

بمـا أنـه لدينـا ملـكات حسـية وذهنيـة موثـوق فيهـا، والاعتقـادات النابعـة مـن أعمالهـا موثـوق فيهـا لهـذا السـبب فقط، فهـي تشـكل الأسـس التـي عليهـا ترتكـز عقلانيتنـا. بالشـكل نفسـه لدينـا حـس إلهـي، وهـي ملكة لتوليـد الاعتقادات التي تنتـج، في حالـة توفـر الـشروط المناسـبة، اعتقـادات لا تسـتند على بداهـات أو على اعتقـادات أخـرى[2].

تـدل هـذه الفكـرة عـلى أن الاعتقـاد الدينـي والاعتقـاد في اللـه وفي وجـوده

(١) عبـد الواحـد العلمـي، هـل إبسـتيمولوجية الاعتقـادات الدينيـة ممكنـة؟ قـراءة في فلسـفة الديـن التحليليـة، مجلـة ألبـاب، العـدد الرابـع، (شـتاء ٢٠١٥)، (الربـاط، المغـرب)، (ص/ ٤٣).

(2) Alvin Plantinga, Warranted Christian Belief (Oxford: Oxford University Press, (2000), (p/ 172-173).

عفوية ولا تحتاج إلى تبرير عقلاني أو حتى إبستيمولوجيا:

«لماذا يجب أن يكون هناك حجة جيدة عن وجود الله لكي يكون الاعتقاد في الله عقلانيًّا مقبولًا حقًّا؟ فقبل كل شيء، لا أحد يفكر في وجوب وجود حجة جيدة لصالح وجود الماضي حتى يكون الاعتقاد في الماضي عقلانيًّا، أو للاعتقاد أنّني قد تناولت فطوري هذا الصباح»[1].

إن الحاجة إلى إبستيمولوجيا للاعتقاد الديني -داخل الدين وبين الأديان- راجعة إلى كون العالم أو العوالم الدينية تتسم بالتركيب والانفلات، والمعتقدات الدينية لا تحيل بالضرورة إلى قناعات -أو رؤى اجتماعية- تدافع عنها تنظيمات اجتماعية أو أفراد معينون فقط؛ بل تتضمن رهانات أيديولوجية، سياسية، اقتصادية...

وأيضًا إرثًا حضاريًا وثقافيًا معينًا؛ إن النبوة لا تُنتج أو تَصنع التنظيمات الدينية والاجتماعية، بل تصنع الثقافة والحضارة الإنسانية[٢].

إن كل عالم ديني يتمسك بمؤسسيه ويخلق عالمًا جديدًا من العلامات، تَخضع لمختلف أنواع التفسير والتأويل، وتُخضع في الوقت نفسه مختلف الأنظمة الاجتماعية المؤسساتية والاجتماعية التي أنتجتها[٣]. بهذا المعنى، تصبح المعتقدات الدينية مقترنة، بالضرورة، بالروابط الاجتماعية التي يخلقها الدين في الزمان والمكان، وانتقال وتغير الأشكال المختلفة من التضامن والانتماء التي تخلقها

(1) Ibid.(p/ 173).

(٢) انظر:
Jean-Paul WILLAIME, La construction des liens socio-religieux: essai de typologie à partir des modes de médiation du charisme, in Yves LAMBERT, Guy MICHELAT et Albert PIETTE (dir.), Le religieux des sociologues. Trajectoires personnelles et débats scientifiques, L'Harmattan, Paris, (1997), (p/ 97-108).

(٣) يمكن أن نُذَكر هنا بالقوة والسلطة التي امتلكتها الكنيسة المسيحية -الكاثوليكية خاصة- على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي، بل حتى على المستوى العلمي أيضًا. أما بالنسبة إلى العالم العربي، وفي ظل غياب مؤسسات دينية منظمة، فيمكن أن نشير إلى دور الزاوية في تاريخ بعض الدول - خاصة المغرب.

المعتقدات الدينية في حد ذاتها[١] (العقيدة). تسعفنا سوسيولوجيا المعتقدات الدينية[٢] لفهم كون الشروط الاجتماعية لإنتاج نظام المؤانسة الدينية قد لا ترتبط في كثير من الأحيان بالتعاليم العقدية الرسمية أو حتى الموحدة. يرتبط النظام الاجتماعي والثقافي لإنتاج الدين بثلاثة مستويات مركزية (الفاعلين، والتنظيمات والأيديولوجيات)؛ **أولًا:** علاقة الشرعية الدينية بالبنية الذهنية للأفراد والجماعات المعتقِدة. **ثانيًا:** إنتاج الدين نفسه لنظام سلطوي وتراتبي يمتد في الزمان والمكان. **وأخيرًا:** غالبًا ما شكل الدين مصدر اختلاف بين المجتمعات الإنسانية من منطق طبيعة الشروط الموضوعية المحددة لفهم النصوص المقدسة والتوظيفات الأيديولوجية التي تجردها من قدسيتها عبر الزمن.

قد يتصور المرء أن مثل هذه التصنيفات مجرد مجازات تناشد التجريد الرمزي. لكن الأمر ليس كذلك؛ فلا يمكن لأي مسيحي أن يوافق على كون قيام المسيح مجرد استعارة. إن قيام المسيح هو جوهر الإيمان المسيحي. ولكن -ودائمًا «لكن»- جسد المبعوث من الموت لم يعد جسده الخالد حسب تعبير القديس بولس: إنه عبارة عن «الهيئة الخارجية» الخالدة والأبدية. في الواقع، إن المعتقدات الدينية ناجحة جدًّا في كثير من الحالات، رغم زيفها الواضح، فقد أثبتت التجربة أنه لا يوجد شيء بعد الموت، أو أن الله غير موجود! ومع ذلك، هناك الكثير من المعتقدات ظاهر أنها غير صحيحة، لكن مع ذلك نؤيدها بشكل عفوي[3]. يمكن أن نفهم الأمر في ضوء مفهوم «العقلانية المعرفية»، (La Rationalité cognitive) الذي اقترحه السوسيولوجي

(١) هنا نشير إلى كون العلوم الاجتماعية، من حيث مقاربتها للتدين كممارسة وإنتاج اجتماعي داخل المجال، تدرس كل ما يعتقد فيه الأفراد والجماعات سواء ما ينتمي منها إلى الدين الرسمي أو غير الرسمي (كل ما يعتقد فيه الأفراد فهو ديني -بالنسبة إلى العلوم الاجتماعية- سواء اندرج ضمن المعتقد أو عارضه).

(٢) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، (مرجع سابق).

(3) Charles-Henry Cuin, op. cit., p. 84.

الفرنسي (ريمون بودون)، (Raymond Boudon) لتفسير الاعتقاد في المعتقدات الهشة أو حتى الخاطئة، التي لا يتم تشاركها أو الاعتقاد فيها -في حد ذاتها- على نطاق واسع، سواء ضمن الدين نفسه أو بين الأديان المختلفة: إنها تؤسس لمعارف عقلانية تتجاوز كل ما هو ثقافي أو عاطفي ولا يمكننا الاستغناء عنها أو تجاوزها في ظل المعارف المحدودة للأفراد والجماعات[1]، ويصبح الجهل بالمعتَقد الذي يؤمن به المعتقِد نفسه قوة للاعتقاد في هذا المعتقَد!

يمكن أن ننظر من هذه الزاوية إلى المعتقدات على أنها مقترحات تفسيرية ذات دلالات ومعانٍ مختلفة، فعندما أقول: «إن الباب مفتوح»؛ فإنني لا أقول شيئًا غير أن الباب مفتوح؛ وعندما أقول: «هناك حياة بعد الموت» فإن الأمر يعني شيئًا غير الذي تقوله العبارة التي استخدمتها[2].

ثالثًا: نحو إبستيمولوجيا لعلوم اجتماع الأديان والتدين في العالم العربي:

في ظل الطفرات الاجتماعية والثقافية والسياسية الكونية التي يعيشها العالم (وبخاصة الدول العربية)، هل نحن بحاجة إلى سوسيولوجيا للأديان، وإبستيمولوجيا للاعتقادات الدينية، من أجل الكشف عن مكنونات المعتقدات الدينية، وربطها بالمستويات الاجتماعية والثقافية لمعيشة الأفراد والجماعات، ثم تحديد طبيعة العلاقة التي تربط الاعتقادات الدينية بالممارسات السياسية من جهة، والفعاليات العلمية من جهة أخرى؟

(١) حول هذا المشروع الإبستيمولوجي، انظر:
-Raymond Boudon, Raison, bonnes raisons, Paris, Puf, (2003).
-Raymond Boudon, Le Sens des valeurs, Paris, Puf, (1999a).
-Raymond Boudon, Les formes élémentaires de la vie religieuse: une théorie toujours vivante, L'Année sociologique,49 (1) (1999b), (pp/ 149-198).
-Raymond Boudon, L'Art de se persuader - des idées fausses, fragiles ou douteuses, Paris, Fayard, (1990).

(٢) محمد الإدريسي، سوسيولوجيا الدين أو سوسيولوجيا المعتقدات الدينية؟ نحو تجديد الحوار المتداخل التخصصات بين العلوم الاجتماعية في دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة، (مرجع سابق).

مـن وجهـة نظـر إبسـتيمولوجية، وفي سـياق طبيعـة تلقـي واسـتدماج العمـوم للمعرفـة العالمـة، يجـب تجـاوز الخصومـة الحاصلـة بـين العلـماء (خاصـة الاجتماعيـين) والفلاسـفة المشـتغلين في حقـل الأديـان والمعتقـدات، وبـين المعتقديـن أنفسـهم، مـن منطلـق أن مهمـة العلـم الاجتماعـي هـي البحـث في أشـكال التديـن وليـس الديـن نفسـه، فالقواعـد الخلقيـة يمكـن أن تتنصـل مـن الوعـي المبـاشر للأفعـال، ولأنّ الأخـلاق ليسـت محتـوى الوعـي، بـل هـي وقائـع اجتماعيـة؛ فإنّهـا لا يمكـن أن تُعـرَف إلاّ عـبر ملاحظـة الأفعـال. وإنّـه مـن الغلـط أن يريـد المـرء العثـور عليهـا دون عقـد الصلـة مـع المنظومـات الاجتماعيـة، بـل عـلى العكـس مـن ذلـك «يوجـد العديـد مـن المنظومـات الأخلاقيـة بقـدر مـا يوجـد مـن أنمـاط المجتمـع، وأخـلاق المجتمعـات الدنيـا هـي أخـلاق مثلهـا مثـل تلـك التـي توجـد في المجتمعـات المتطـوّرة»[1].

(١) هانـس صانـد كولـر، مدخـل إلى فلسـفة الديـن، ترجمـة فتحـي المسـكيني، مجلـة ألبـاب (مؤسسـة مؤمنـون بـلا حـدود للدراسـات والأبحـاث)، العـدد الثالـث، (صيـف ٢٠١٤)، (ص/ ٩٨).

لا يمكـن تحليـل الظاهـرة الدينيـة، سـواء مـن قبـل العلـوم الاجتماعيـة أو العلـوم الدينيـة، بمعـزل عـن شـموليتها وتركيبهـا؛ فالديـن هـو في ذاتـه مـن حيـث المبـدأ، وإنْ كان ذلـك في مقـام لا يـزال غـير موضّـح بعـد، إنّمـا يحتـوي عـلى العنـاصر التـي قـد أنتجـت؛ لكونهـا تنفصـل وتتحـدّد وتترابـط مـع بعضهـا البعـض بـآلاف الطـرق والتجليـات والتمظهـرات المختلفـة للحيـاة الجماعيـة[2]. لذلـك فدراسـة الديـن مـن خـارج الديـن، مـن منظـور العلـوم الاجتماعيـة، هـي بالـضرورة دراسـة تسـتلزم الوقـوف عنـد المنطلقـات والأبعـاد الاجتماعيـة والثقافيـة والسياسـية وحتـى الاقتصاديـة للظاهـرة، دون التغافـل عـن الـشرط الإبسـتيمولوجي والانعـكاسي لعمـل الباحـث، الـذي يفـرض ضرورة وضـع الـذات بـين قوسـين، بالرغـم مـن صعوبـة ذلـك، والحـرص عـلى مسـاءلة الـذات إزاء الموضـوع: إلى أي حـد اسـتطاع الباحـث دراسـة المعتقـد مـن خـارج المعتقـد دون أن يجـرد الديـن نفسـه مـن خصوصياتـه

(2) Emile Durkheim, Journal Sociologique. Paris, (1969), (p/ 138).

العقدية (حرصًا على الدقة والبحث عن الخفي)، وأيضًا إلى أي حد استطاع الحفاظ على خصوصية الفعالية العلمية نفسها (عدم تديين الممارسة والمعرفة العلمية).

في كثير من الأحيان، وحينما يتم استدعاء الفلاسفة وعلماء اجتماع الأديان (سواء في مؤسسات أو ندوات، أو مؤتمرات، أو مجلات...) -داخل وخارج المجال العلمي والأكاديمي- لعرض أعمالهم وتجاربهم البحثية بخصوص مجال اشتغالهم، يتم دائمًا طرح سؤال الغاية والجدوى من وجودهم: ما القيمة المضافة التي سيقدمونها، وما مصلحة الدين (خاصة العلوم الدينية) من ذلك؟ إن هذه الظاهرة غير مقترنة بعالمنا العربي فقط وإنما بمجمل دول العالم، وعلى اختلاف الديانات المؤطرة لها. غالبًا ما يتم ربط البحث في الدين من خارج العلوم الدينية بكونه ضربًا من ضروب المس بالمعتقد نفسه (ولو ليس دائمًا)، وتلك قضية يتحمل فيها علماء اجتماع الدين وفلاسفة الدين جزءًا كبيرًا من المسؤولية، من منطلق: أنهم لا يفصلون بين معتقداتهم الدينية (إسلامية / مسيحية؛ شيعية / سنية...) والفعالية العلمية، وهو ما قد يظهر من خلال دفاعهم أو انتقادهم لأفكار معينة، وإما أنهم يورطون الممارسة العلمية في قضايا أخروية لا تدخل ضمن حقل اهتمامها، وإما أنهم لا يلتزمون بانعكاسية إبستيمولوجية تنتصر وتدافع عن مقولة دراسة الدين والمعتقد من خارج الدين نفسه؛ أي إن العلوم الاجتماعية تقارب الدين من حيث هو تدين وممارسات وسلوكات اجتماعية وثقافية... ولا تبحث عن دراسة الدين من حيث هو معتقد.

سيكون من الضروري التعامل مع قضايا تلقي علوم اجتماع الأديان، والطريقة التي يعامل ويتعامل بها الفاعلون المختلفون (رجال الدين، الساسة، والإعلام...) مع هذه العلوم، وأيضًا كيف يتعامل المشتغلون؟ في هذا الحقل مع طبيعة مواضيعهم؛ أي إننا في حاجة، أولًا، إلى إبستيمولوجيا

للعلـم (الانعكاسـية الذاتيـة للباحثـين والعلـماء)، وإلى سوسـيولوجيا للعلـم (كيـف ينظـر اجتماعيًـا، ومؤسسـيًا إلى العلـم)، ثـم إلى إبسـتيمولوجيا للاعتقـاد الدينـي في العـالم العـربي (كيـف نجـدد الحـوار الإبسـتيمولوجي بـين العلـوم والتخصصـات الفاعلـة في دراسـة الظاهرة التدينيـة).

مـن الناحيـة الفلسـفية، يمكـن إرجـاع هـذه القطيعـة التـي أضحـت تعيشـها «جماعاتنـا العلميـة»، (فضـلًا عـن العمـوم)، بـين البعـد العلمـي للتديـن، والبعـد التاريخـي للديـن، إلى إغفـال كـون الديـن مقولـةً تنـدرج في إطـار ملكـة التمثّـل الذاتيـة[1]. لقـد أضحـى الديـن كونيًـا بالـضرورة، وأضحـى المهتمـون بدراسـة المعتقـد يتجـاوزون مقولـة كونهـم مجـرد ملاحظـين، أو عليهـم التصديـق بأنهـم ملاحظـون، مـن منطلـق أن التكامـل بـين علـوم الديـن وعلـوم الأديـان ضرورة لا غنـى عنهـا لتجـاوز كل منزلقـات التعصـب والتطـرف (باسـم الديـن) أو «ازدراء الأديـان (باسـم العلـم)».

بشـكل عـام، يبـدو أن العلـوم الاجتماعيـة غـير قـادرة بعـد عـلى موقعـة نفسـها أمـام (الديـن)، [بخاصـة أمـام العمـوم]، وتحديـد المسـافة بـين العلمـي والـذاتي في مقاربـة الممارسـات التدينية، بسـبب عدم تطويـر اسـتراتيجيات علميـة ونقديـة، ليـس لمسـاءلة الظاهـرة نفسـها فحسـب؛ وإنمـا لمسـاءلة الممارسـة العلميـة أيضًـا. لا بـدَّ مـن العمـل (بخاصـة في السـياق العالمـي المتحـول) عـلى تجـاوز المنظـور الكلاسـيكي للاعتقاد المسـتقل عـن محتوى المعتقـد، وثبـات واسـتقرارية الاعتقـاد (في مقابـل ثبـات الاعتقـاد)، وأيضًـا انتقـال الاعتقـاد (وليـس اسـتمراره). لم يعـد النسـق الماكروسوسـيولوجي (المؤسسـات الدينيـة) ناجعًـا كفايـة للكشـف عـن الطابـع المعقـد والمركـب للظاهـرة التدينيـة في سـياق المجتمعـات المتحولـة (En mutation)، في ظـل تركيـز العلـوم المجـاورة عـلى المعيـش كسـند للباحـث مـن أجـل الكشـف عـن

(١) انظر:
Jonathan Z. Smith, Religion, Religions, Religious. In: M. C. Taylor (Hg.), Critical Terms for Religious Studies, Chicago,(1998), (p/ 269-284).

القوانين المحليانية والكونية المتحكمة في تسلسل وتركيب الظواهر الإنسانية والاجتماعية. إذا كان نزوع الأفراد نحو التدين كونيًا، فإن المعتقدات الدينية محليانية؛ أي كونية الاعتقاد الديني، ومحليانية المعتقد الديني.

إن العلوم الاجتماعية، في سياق اللاتكافؤ العالمي، أضحت مدعوة إلى المشاركة في تنمية، واختبار وتطوير ونقد التدين العمومي، في إطار مسعى تقديم معرفة علمية ملتزمة حول واقع ومستقبل الظاهرة الدينية، ومن أجل تعزيز قيم التسامح والعدالة والمساواة ونبذ العنف والكراهية والتعصب الديني. لم نعد في السياق المعاصر نتحدث عن «دين» (religion)، بل عن «أديان» (Des religions)، ولا عن حقيقة دينية واحدة، بل حقائق متعددة ومختلفة وأحيانًا متصارعة حتى داخل الدين نفسه أو بين مختلف الأديان.

لذلك سيكون من المهم، إن نحن أردنا ربط العلوم الاجتماعية بتحولات الحقل الديني العربي المعاصر، التفكير في كون وجود سوسيولوجيا (وعلوم اجتماع) متقدمة تتمثل في وجود نسق، أو أكثر من نسق نظري، يتسم كل منها بالاتساق بين العناصر التي يتكون منها، وهذا ما يسمى بالاتساق الداخلي، ويفسر تفسيرًا موضوعيًا الظواهر والوقائع الاجتماعية، على هذا النحو يوفر ما يمكن أن يسمى الاتساق الخارجي؛ وهذا يعني أن لكل جهد في السوسيولوجيا وظيفتين: الأولى وظيفة علمية، تتمثل في إرساء قواعد العلم والعمل على تقدمه، وتوفير فهم موضوعي للواقع الاجتماعي، والوظيفة الثانية وظيفة اجتماعية تتحقق بالإسهام في رفع وعي الإنسان بنفسه وبمجتمعه والعالم والكون، وترشيد تعامله معه[1]، ولا ينفصل الحقل الديني عن هذا الرهان.

يمكن أن نعتبر أن جوهر المشكل كامن في محاولة التأسيس لعلوم اجتماع

(١) حمد عزت حجازي، الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع بالوطن العربي، في: محمد عزت [وآخرون]، نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. (سلسلة كتب المستقبل العربي - ٧)، (١٩٨٦)، (ص/١٣).

لذلك سيكون من المهم، إن نحن أردنا ربط العلوم الاجتماعية بتحولات الحقل الديني العربي المعاصر، التفكير في كون وجود سوسيولوجيا (وعلوم اجتماع) متقدمة تتمثل في وجود نسق، أو أكثر من نسق نظري.

أديان عربية وإسلامية (محليانية) في مقابل علوم اجتماع أديان غربية (كونية). إن الحديث عن المركز في مقابل الهامش، ومحاولة التميز أو الاختلاف (الحق العربي في الاختلاف السوسيولوجي والإبستيمولوجي من منطلق الاختلاف العقدي) لا يمكن أن يكون ذا جدوى عملية أو حتى علمية في سياق اللاتكافؤ العالمي، وبدلًا من ذلك، يمكن التفكير في إمكانية تأسيس علوم اجتماعية (عامة وخاصة) مترابطة ومتداخلة تأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات (القومية) في إطار معرفة كونية متعددة الثقافات.

ولتحقيق ذلك يجب التركيز على إنتاج علوم اجتماع قائمة على النقد ما بعد الكولونيالي والناقض للاستعمار الذي طال المركزية الأوروبية، بوصف تلك المقاربة طريقًا أفضل لفهم حاضر كوني نتقاسمه.

الانشغال المركزي بسوسيولوجيا مترابطة هو إعادة التفكير في علم الاجتماع بوضع تواريخ الانتزاع والاستعمار والاستعباد والتملك في قلب علم الاجتماع التاريخي والاختصاص عامّة. في تأسيس «الكوني الكولونيالي» أنا أحاجج بأن ليس بمقدورنا، من دون فهم دلالة علم الاجتماع، فهم ومعالجة الحاضر ما بعد الكولونيالي والناقض للاستعمار ذاك الذي يفترض فيه أن يكون حقل «علم الاجتماع الكوني» النقدي في تمام معناه[1]. يجب أن يرافق هذا المطمح بالنقد الانعكاسي للعلم نفسه، بالعودة إلى الأصول الإبستيمولوجية الكونية والمحلية، بغية ضمان الشرط الموضوعي لاستمرار العلم من جهة، واستدماجه في البنيات الموضوعية كما البنيات الذهنية من جهة أخرى.

(1) Gurminder K. Bhambra, Global Sociology in Question, Global Dialogue, VOL. 5/ 2, (JUNE, 2015), (p/ 08).

من منظور إبستيمولوجي معاصر، لم تعد العلوم والمعارف العلمية جزرًا معزولة، بل أضحى التداخل فيما بينها جوهر تطوير الممارسة العلمية نفسها. وبما أن الظاهرة الدينية متعددة المنطلقات ومتشابكة الأبعاد؛ فإن الجماعات العلمية الملتزمة مدعوة إلى تحقيق هذا الرهان بتطوير انعكاسية إبستيمولوجية منفتحة على الحاضر والمستقبل. ليس هناك صراع أو تضاد، ولن يكون، بين العلوم الدينية والعلوم الاجتماعية، من منطلق تكامل منطلقاتهما وأهدافهما ورهاناتهما العلمية والمجتمعية، ورغبتهما في تسخير المعرفة لتغيير المجتمع والحياة الإنسانية. ولن يتحقق هذا الرهان الملتزم في سياقنا العربي دون الأخذ بعين الاعتبار منطق التخصص من جهة، فيما يتعلق بالموضوع، ومنطق التكامل من جهة أخرى، فيما يتعلق بالعودة المنهجية والإبستيمولوجية والانعكاسية.

يبنع تشديدنا على ضرورة إشراك العلوم الاجتماعية في مسلسل تحليل البنيات والأشكال الموضوعية للمجتمع من منطلق أنه يمكننا أن نربط بين التحول الجوهري في طبيعة العلاقة بين السوسيولوجيا والعالم الاجتماعي من جهة، والنسق الإبستيمولوجي من جهة ثانية، والحقل الديني من جهة ثالثة، بتحولات النظام الاقتصادي العالمي الجديد؛ إذ لا يمكن للسوسيولوجيا أن تحد من التزاماتها نحو العموم المحلي أو الوطني، لكن يجب أن نقلق بشأن اتحاد عالمي للمجتمع المدني.

وعلاوة على ذلك، فإن الموجة الثالثة من السوسيولوجيا تتبنى منطق العلوم المندمجة والمختلفة؛ خلافًا لمنطق العلم المنغلق في القرن التاسع عشر، أو حتى العلم الأكاديمي ذي المنحى السياسي الذي ظهر خلال القرن العشرين، وتسعى إلى الجمع بين الصرامة العلمية وتطوير القيم البديلة. إننا لا نناضل من أجل علم نموذجي واحد، بل من أجل تخصصات متقاطعة مع برامج بحثية متعددة، استنادًا إلى قيم الجماهير المختلفة، وتطوير تصورات سوسيولوجية تأخذ بعين الاعتبار المفارقات وتناقضات

هـذه التخصصـات. هـذا مـا أسـميه بالعلـم الانعـكاسي، وهـو العلـم الـذي لا يخـشى مسـاءلة قيمـه الأساسـية، أو حتـى التعبـير علنًـا عنهـا، ويظـل علـمًا رغـم كل شيء[1]: علـوم منفتحـة عـلى المسـتقبل، ومسـائلة باسـتمرار لذاتهـا، ولمنطلقاتهـا ولرهاناتهـا داخـل المجتمـع. لـن يتـأتى ذلـك دون تنميـة «الجماعـة العلميـة» وخاصـة «الدينيـة» منهـا.

خاتمة:

ختامًـا، هـل يمكـن فعـلًا الحديـث عـن إبسـتيمولوجيا للاعتقـاد الدينـي؟ يمكـن أن نجيـب عـلى هـذا السـؤال وفـق مؤشريـن: سـؤال الاختيـار، وسـؤال الغايـة. أولًا: نَبَـعَ اختيـار الحديـث عـن إبسـتيمولوجيا للاعتقـاد الدينـي مـن رؤيـة نقديـة تهـدف إلى الفصـل بـين دراسـة المعتقـد الدينـي ضمـن حقـل العلـوم الدينيـة، ودراسـة الاعتقـاد التديني مـن طـرف العلـوم الاجتماعيـة. ثانيًـا: هدفنـا إلى الإشـارة إلى أهميـة المقاربـات المتداخلـة والمتعـددة التخصصـات لدراسـة الظاهـرة الدينيـة المعـاصرة كمدخـل منهجـي للوعـي بـضرورة إبسـتيمولوجيا الاعتقـاد الدينـي مـن جهـة، وفعاليتهـا العلميـة مـن جهـة أخـرى. أمـا مـا يتعلـق بالغايـة، ففـي ظل تعـدد وتعـارض واختـلاف المعتقـدات الدينيـة، وأيضًـا تشـابك أبعادهـا الدينيـة والوجوديـة، يجـب القطـع مـع كل التوجهـات التـي تنتـج «اعتقـادًا»، (DOXA) داخـل الأوسـاط الأكاديميـة بـأن العلـوم الاجتماعيـة غـير قـادرة عـلى فهـم وتفسـير الطفـرات النوعيـة لظاهـرة التديـن المعـاصرة.

يتعلـق الأمـر هنـا بدعـوة نقديـة إلى تعزيـز المناهـج الإبسـتيمولوجيا في اتجـاه دراسـة الظاهـرة التدينيـة والحـرص عـلى التأسـيس العلمـي لعلـوم اجتـماع الأديـان والديـن مـن خـارج الديـن ومـن خـارج المعتقـد نفسـه، قوامهـا الموضوعيـة وهدفهـا العـودة إلى الأصـول السوسـيولوجية في دراسـة الظاهـرة التدينيـة المعـاصرة والكشـف عـن تعقدهـا وتركيبهـا.

(1) Michael Burawoy, the future of sociology, Epilogue in Robert Brym (ed.), New Society, Nelson, (2013), (p/ 525).